لا أحد قبّل يد يسوع

طارق بشوّر

رحلتُ برفقة وثيقة «نختار الحياة» إلى حوار مع ذاكرتي، إلى ذاك التاريخ من عمر المراهقة حين ذهلتُ بنصوص كتاب «إنطاكية تتجدّد»، الذي أصدرته حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة العام ١٩٩٢: كتاب أرهق مخيّلتي أنا الذي عشت ثمار نضال من كتب سطوره وآمن برسالته. واليوم، وبعد أن نبذت كنيسة أنطاكية كلّ أفكار التجدد، وانكفأت على عصبيّة ورفض وتطرّف اضمحلّ فيه الجوهر وازدانت القشور بهالات القداسة، تطلّ وثيقة «نختار الحياة» على شرقنا الحبيب في زمنٍ بائس، راسمةً خطوط أمل جديد نحتاجه، فنحن شعب يعيش من الأمل.

إنّها وثيقة بكلّ ما تحمله الوثيقة من معنى. تخاطب العقل، تحاجج بالمنطق، وتُسطّر بدقّة نموذجاً حضاريّاً يليق بكنيسة المسيح. أقلام متعدّدة الطوائف خطّت سطور هذه الوثيقة بروح واحدة، فأحرقت كلّ خلفيّاتنا الطائفيّة. التنوّع الجميل، الذي صوّرته الوثيقة أجملَ تصوير كطرائق متعدّدة للإفصاح عن الإيمان، يشتركُ في همٍّ واحد، ويصارع التحدّيات عينها حيال رغبة الاستمرار والوجود والحياة. يدخل القارئ عالم هذه الوثيقة عبر مقدّمة تضعه أمام أسباب كتابتها، وينتقل بسلاسة إلى حاضر المسيحيّين في الشرق جيوسياسيّاً ولاهوتيّاً على التوالي، ليقف أمام تحدّيات راهنة تناولتها الوثيقة بواقعيّة تدعو إلى إعمال العقل، لا استثارة العواطف، ثمّ تنتهي الوثيقة إلى خيارات وسياسات تناجي المؤسّسات الكنسيّة لإنقاذ ما تبقّى.

شرقيّتنا تغرينا بالتبجيل والمديح. وصدقاً، يليق بهذه الوثيقة المديح والتبجيل. سأتناسى شرقيّتي في هذه السطور، لأصرخ بألمٍ حين كتبت الوثيقة جراحي بجُمل منمّقة، ولأرمي هذه الوثيقة ببعض ورود النقد التي لا تهدف إطلاقاً إلى تشويه جمالها وأهمّيتها، بل فقط إلى مزيد من الأمل.

لعنة اللغة

في حين تألّمت سطور الوثيقة، في أكثر من موضع، للشرخ المتنامي بين المؤسّسة الكنسيّة وأبنائها، وخصوصاً جيل الشباب، سقطت الوثيقة في فخّ جماليّة اللغة وعبقريّتها، التي وإن كانت ترسم لوحةً فكريّةً وعلميّةً رائعة، إلا أنّها بعيدة كلّ البعد عن عقول عوام المسيحيّين، ولا سيّما اليافعين. تمتلئ الوثيقة بمصطلحات علميّة وأكاديميّة لا تخاطب القرّاء العاديّين، بل تشترط لاستيعابها خلفيّةً أكاديميّةً وثقافيّةً عالية. وكيف أختار الحياة إن لم أفهم الدعوة؟ نحن، هنا، في حاجة ماسّة إلى خطاب تطرب له آذان المستمعين، كلّ المستمعين، وليس فقط طبقة معيّنة من الأكاديميّين والباحثين.

الربيع العربيّ

هنا، سأختار كلماتي بعناية متطرّقاً إلى ما ذكرته الوثيقة عن تحوّلات الربيع العربيّ، التي وإن كانت تنطبق على بعض الثورات، فهي انهزمت سريعاً إلى حدٍّ مخيف من الطائفيّة والمناطقيّة والعرقيّة. حلم المواطنة، وإن كان يوماً رايةً خفقت في كنف الربيع العربيّ، إلّا أنّ واقعنا المرير أرغمنا على ألّا نحلم. والتغيير الديمقراطيّ الذي نادت به المنابر لم تُرسم يوماً أيّ خطوط من ملامحه العريضة. أيّ تغيير ديمقراطيّ ننادي به ونحن كمجتمع، وليس كدولة، نرفض إلى حدّ الإجرام كلَّ من يجرؤ أن يكون مختلفاً؟ ربيعي العربيّ هو ثورة على المجتمع الذي ما زلنا نزيده مرضاً وتقوقعاً وانفصاماً. لا ترتقي الدول بنظام ديمقراطيّ فقط، بل باستعداد أبنائها وقبولهم للديمقراطيّة أيضاً، بقبولهم واستعدادهم لأن يكونوا مواطنين، وأن يحترموا حقوق شركائهم في الوطن وحرّيّاتهم. ليس من مبرّر للاستبداد، وبالمقابل علينا الاعتراف بأنّنا أمام طريق طويل لنتجرّأ

ولو على القول إنّنا نؤسّس لديمقراطيّة مبنيّة على المساواة في المواطنة. فهل كانت إعادة إنتاج الأنظمة لذاتها نتيجةً سياسيّةً وحسب، أم إنّنا نغمض أعيننا أمام فشل وعدم استعداد اجتماعيّ؟

التنوّع

تصف الوثيقة التنوّع الجميل للمسيحيّة في الشرق واندماج الإرساليّات الغربيّة لتزيده جمالاً وقدرةً على تكوين ملامح نهضة رسمت الأيادي المسيحيّة الكثير من معالمها. ثمّ تنتقل إلى الحركة المسكونيّة العالميّة، وتذكر بلطف خطاب الكره المتنامي في كنائس شرقنا. شيطنة الحركة المسكونيّة أصبحت اليوم لبّ عظات الإكليروس، والتحذير من هرطقة الطوائف الأخرى هو جلّ تعليمنا. فلنصرخ في وجه كلّ من يدعو إلى نبذ كلّ ما هو مشترك لتغذية خلافات تراكم عليها غبار العصور، ولا يفهم معانيها العقائدية إلّا مَن صرف سنوات في دراسة اللاهوت. رعاتنا يخشون اضمحلال عروشهم إن استفاقت المسيحيّة في صدور المسيحيّين مُسقطةً انشقاقات لا يستجير بها إلّا كلّ خائن لكنيسة يسوع الحقّ! ندعو إلى وأد صراع سنّيّ-شيعيّ، ونحن أكثر حقداً وكرهاً واقصاءً للآخر. عدوى المناصب تفشّت في أوساط رعاتنا، فنَدُر خدّام المسيح، وتنامى سلطان مَن يدّعون تمثيل يسوع على هذه الأرض، وهم واللهِ يمثّلون كلّ ما ثار يسوع في وجهه! خدّام للمسيح استحالوا أباطرةً ينتشون بألقاب ما عَرَفها يسوع، بمجوهرات لا تخجل أمام البطون الجائعة، وبكبرياء كانت عنوان السقوط الأول.

الإسلام

جهل المسيحيّين بالإسلام، والمسلمين بالمسيحيّة، هو، في رأيي، أحد جذور الخوف المتأصّل في شرقنا. ومرحباً بالجهل أمام خرافات وأكاذيب يختلقها المتبجّحون بالدين في الجوامع والكنائس. نحن شركاء في هذا الشرق، ولا نستطيع أن نختار الحياة إلّا مع إخوتنا، نعم إخوتنا المسلمين. حين يحتمي الإنسان بجدران ملّته في ظلّ أنظمة بعيدة من الديمقراطيّة، كما أضاءت الوثيقة ببراعة، لا بدّ من جسور تُبنى، وأيدٍ تتلاقى إلى أن تَغلِب بكثرتها قسوة الجدران. لا بدّ لخطاب معاهد اللاهوت وكلّيّاته، كما للتعليم الدينيّ، أن يتطرّق إلى الإسلام حين يعلّم المسيحيّة. ولنفهم أنّ للمسلمين نصيباً في الجنة، كما لليهود وسائر البشر. حوار الأديان يتطلّب منّا التنازل، ولو قليلاً، عن وهمنا أنّنا مركز الكون. قبول الآخر يبدأ بمعرفته، والجهل حقل واسع لكلّ راغب في غرس الحقد والخوف والكره.

الشرخ بين المؤسّسة الكنسيّة والمجتمع

نعم يا كتّاب الوثيقة، الشرخ بين المؤسّسة الكنسيّة والمجتمع عميق جدّاً. يعِظُ الكهنة جموع المؤمنين عن المعاني العميقة للشموع والبخور، عن استقامة الليتورجيا، عن أهمّيّة التبرّع لبناء مساكن الله، وصولاً إلى التجديف على العلم، وزرع رهاب المؤامرات في عقولنا، التي يبتغي الغرب بواسطتها دكّ حصون إيماننا المستقيم. وهؤلاء المؤمنون ذاتهم يخجلون من نظرات الحرمان في عيون أطفالهم، ويرتجون من الشموع القليل من النور في ظلمة منازلهم. هؤلاء المؤمنون عينهم يسلّحون أولادهم بالشهادات العلميّة ليصطفّوا على أبواب السفارات الغربيّة أملاً بتأشيرة تقيهم ما ذاق أباؤهم وأمّهاتهم من مرّ وهوان، أملاً بقليل من الكرامة. ما أبشع ذاك الإله الذي يطلب زينة كنائسه بثمائن الأيقونات والأقمشة والأواني المذهّبات، فيما الأيقونات الحيّة تموت جوعاً وبرداً وذلّا.

دور المرأة

في حين أنّ الرعايا المسيحيّة الشرقيّة المهاجرة إلى الغرب أعادت إنتاج ذاتها بشكل مشابه جدّاً لما اعتادت عليه في موطنها الأصليّ، إلّا أنّ شيئاً من الانفتاح البسيط يميّز كنائس المهجر، خصوصاً في ما يتعلّق بدور المرأة في الكنيسة، والتي وإن كانت لم تجد طريقها إلى الكهنوت بعد، فمن المعتاد رؤيتها تخدم الهيكل إلى جانب أخوتها الفتيان. شكراً لثلاثة أقلام أنثوية زيّنت صفحات هذه

الوثيقة على الرغم من الوضع المزري للمرأة في كنائس شرقنا، والذي هو، عن حقّ، مدعاة للخجل لكلّ من وُلد من رحم امرأة، وأوّلهم يسوع. العذراء تتّقد اليوم في قلوب نساء الكنيسة الكاثوليكيّة في أوروبّا رغبةً في الخدمة الكهنوتية، وفي مساواة طال انتظارها. فأقفال عصور الظلام الصدئة آن أوان تحطيمها. والخبز والخمر يستحيلان جسد يسوع ودمه بنقاء القلوب وانسحاقها سواء ارتفعت أمام مذبح الرب أياد رجال أو نساء.

الشعب والقرارات الكنسيّة

غياب دور الشعب عن القرارات الكنسيّة التي تمسّ، أوّلاً وأخيراً، تفاصيل حياته ومستقبله، أضف إلى ذلك اختيار مجالس الرعايا من الطبقة الغنيّة والعائلات المعروفة، هذا كلّه يؤصّل طبقيّةً قبيحةً ظالمةً لا مكان فيها لفلسي الأرملة. يبدو أنّ دراسة اللاهوت في الشرق تشمل العلوم الإداريّة والماليّة والقضائيّة والسياسيّة والهندسيّة وغيرها. فرعاتنا مطارنةً كانوا أم كهنة، يستحوذون على إدارة الكنيسة، وشؤونها الماليّة، والتصريحات السياسيّة، والتخطيطات العمرانيّة، بأبشع أشكال الاستبداد السلطويّ الذي لا يمتّ إلى الشفافيّة والديمقراطيّة بأيّ صلة. فلا أحد من عامّة الشعب يعرف كم تملك الكنيسة، أو ما تنفقه. وأيّ سؤال أو استفهام في هذا الشأن يرتقي إلى مصافّ الاتّهام بخيانة الأمانة الرسوليّة. لو علم يسوع أنّ حديثه عن اليد اليسرى واليد اليمنى سيُستغلّ بهذا الشكل القميء، لما قاله!

نحن الكنيسة الحيّة

تذكر الوثيقة المؤسّسة الدينيّة أو المؤسّسة الكنسيّة في تسعة مواضع مختلفة، ولكن من دون أن تبيّن الفرق بين الكنيسة والمؤسّسة الكنسيّة. كم شعرتُ بالخزي والعار حين استمعتُ إلى ممثّلي المؤسّسات الكنسيّة الشرقيّة يسألون المؤسّسات الكنسيّة الأوربيّة، العام ٢٠١٦، العون على إعادة بناء ما استباحته الحرب في سوريّا من بيوت الله. لم يذكر أحدهم رعاياه، لم ينادِ أيّ منهم معيناً لكنيسته التي دمّرت الحرب منازلها وقطعت أرزاقها. أرهقني السؤال: هل ما زلنا معابد الله الحيّة؟ وهل أريد إلهاً يرتضي له مسكناً فيما أبناؤه يفترشون العراء؟ أما زلنا كنيسة الله الحيّة؟ كيف استحالت الجدران الصامتة كنيسةً وترامت الكنيسة الناطقة جدراناً محطّمةً متناثرةً لا تسترعي أيّ اهتمام؟ نحن الكنيسة الحيّة، وما دامت المؤسّسة الكنسيّة لا تصدر بيانات ماليّةً سنويّةً تبيّن قيمة التبرّعات وعائدات الأملاك وحجم الإنفاق وكيفيّته، سنصدم مراراً وتكراراً برجال إكليروس خانوا الأمانة. وما دامت المؤسّسة الكنسيّة تستميت من أجل التعتيم على أخطاء رجالها، وعدم إنزال أيّ عقوبات بهم، حتّى إنّها تعينهم على التهرّب من أيّ مسؤوليّة سواء أكانت كنسيّةً أم جزائيّةً أم مدنيّة، فأيّ رادع ندّعي، وأيّ حقّ نصون؟ إن لم يقف أبناء الكنيسة ويناقشوا رعاتها في عظاتهم، فقد ارتضينا، إذاً، أن نكون عبيداً، لا أبناءً لله. كيف تأصّل هذا الفكر الإمبراطوريّ في مؤسّساتنا الكنسيّة؟ وكيف أصبح لرعاتنا سلطان العفو والتقرير؟ كيف أصبحنا جوقةً من المهلّلين نبجّل رعاتنا ونؤدّي لهم فروض الطاعة العمياء من دون تفكير أو تمحيص؟ أنا أختار الحياة معكم يا كتّاب هذه الوثيقة، لكن في حمى مؤسّسة كنسيّة يخدمها ممثّلون ليسوع، يسوع المتواضع الصادق العادل، صديق الضعفاء والمضطهدين، يسوع الذي ما ازدان بالأرجوان والتيجان وما افترش الأسرّة الوثيرة، يسوع الذي غسل أرجل التلاميذ وكان لهم خادماً.

أيّ يسوعٍ يمثّل أباطرة مؤسّساتنا الكنسيّة بجاههم وجبروتهم وما يطلبون من طاعة عمياء وخنوع؟ نحن نحبّ الله ولا نخافه، أبناؤه نحن وورثة ملكوته، لا عبيد نقبّل الأيادي. فلا يسوع مدّ يده، ولا أحدَ قبّل يد يسوع.